القواسم المشتركة بين الخوارج والحداثيين في تأويل المعاني القرآنية

Common Dominators between the Kharijites and the Modernists in the Interpretation of Koranic Meanings

ط/د عبد الجبار بالقط *

د/ عبد القادر شكيمة*

تاريخ الإرسال: 2021/02/12	تاريخ القبول: 2021/11/09	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

لتأويل المعاني القرآنية قواعد وضوابط تحكمه، فإن عدل المفسّر عنها ولم يتقيد بمضامينها أتى بالعجائب، وذلك متمثل فيما أحدثه الخوارج من التأويلات لنصوص القرآن، وما ابتدعه الحداثيون من النظرة التجديدية لكتاب الله حتى نسبوا إليه ما يستحي من ذكره الولدان ويلفظه أصحاب الفطر السليمة والعقول الراجحة؛ لذا جاءت هاته الوريقات مبينة الأمور المشتركة بين الفريقين في تأويل المعاني القرآنية النابع من مخالفة السلف والتابع لهوى النفس.

الكلمات المفتاحية: المعاني، القواعد، الضوابط، التأويلات، الخوارج، الحداثيون.

Abstract:

The interpretation of the Koranic meanings has rules and controls governing it. If the interpreter refrain it and not adhering to its contents, he

will bring wonders, and that is represented by what the Kharijites induced of interpretations of the Koran's texts, and what the modernists devised from the regenerated look of the Book of God until they attributed to it what the children are ashamed of mentioning and people of common sense and preponderant minds reject it. Therefore, these papers came to indicate the common issues between the two parties in the interpretation of the

---

*جامعة الوادي abdeldjabbarbelgot2018@gmail.com

*جامعة الوادي chekabaghani@gmail.com



Koranic meanings stemming from the contradiction of the predecessors and belonging to the whims.

Key words: *meanings, rules, controls, interpretations, Kharijites, modernists.*

المؤلف المرسل: عبد الجبار بالقط abdeldjabbarbelgot2018@gmail.com

*** *** ***

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين أمّا بعد:

استودع الله كتابه ألفاظا وآيات يستشف من بعضها اتساعا في الدلالة وتنوعا في المعاني،سطّر أهل التفسير في قبولها ضوابط، وقيدوا في اعتبارها قيودا، نفوا بها تحريف الغالين لكلام رب العالمين من أمثال الخوارج المارقة، كما نفوا بها انتحال المبطلين ذوي الأفهام السقيمة من الباطنية[1] ومن لف لفهم في دعواهم استنباط معان دقيقة غفل عنها جماهير المفسرين قديما وحديثا ليبرزها –زعموا-الحداثيون باستنطاقهم ألفاظ وآي القرآن الكريم عن طريق قراءاتهم المتكررة والمتجددة له.

أهمية الموضوع:

لا شك أن لهذا الموضوع أهمية قصوى تظهر لكل قارئ جليّة من عنوانه، وقد تمثلت في بيان اشتراك أهل الهوى في تأويلهم النصوص القرآنية تبعا لما أملته عليهم خلفياتهم العقدية ومناهجهم الفكرية.

الإشكالية:

ينبني البحث العلمي عادة على تساؤلات تنقدح في ذهن الباحث أول أمره، تبعث فيه روح التفتيش وإرادة التنقيب، وبحسب التساؤل تأتي النتائج، ولعل أهم تساؤل راودني في هذا البحث هو: ما مدى توافق الخوارج كفرقة قديمة مع الحداثيين كفكر حديث في تأويل المعاني القرآنية؟

ولحل هاته الإشكالية لا بدّ من الإجابة عن الأسئلة الآتية:



1-ما هي ركائز الخوارج في تأويلاتهم للنصوص القرآنية.

2-ما هي ركائز الحداثيين في دعواهم اللانهائية في تأويل المعاني القرآنية؟

أهداف البحث:

للبحث أهداف كثيرة أذكر منها:

1-بيان تحريف الخوارج لدلالة النصوص القرآنية.

2-بيان ضعف التأويلات الحداثية للمعاني القرآنية.

3-بيان تشابه مسلك الخوارج والحداثيين في تأويل كلام رب العالمين.

منهجية البحث:

يرتكز البحث على ثلاثة مناهج:

1-منهج الاستقراء: تمثّل في استقراء بعض ما كتب حول فرقة الخوارج والفكر الحداثي في تعاملهم مع نصوص القرآن العظيم.

2-منهج التحليل: تمثّل في دراسة وتحليل جوانب من منهج الخوارج والفكر الحداثي المطبق على القرآن الكريم.

3-منهج المقارنة: تمثّل في عرض ومقارنة بين الفرقتين فيما ارتكزوا عليه واشتركوا فيه لتأويل معاني الكتاب الحكيم.

الدّراسات السابقة:

أثرى عدد من الباحثين المكتبة الإسلامية ببحوث حول المذهب الخارجي والفكر الحداثي وما ارتبط به من آثار في فهم القرآن الكريم، مبينين الجذور التاريخية لكلا النزعتين الفكرية، ناقدين أركانهم التأويلية ببيان ضوابط تفسير القرآن عند أهل البيان، ولمزيد بيان أردت في بحثي هذا التركيز على ذكر الوجوه المشتركة بين الخوارج والحداثيين في تأويلاتهم الفاسدة لكلام ربّ العالمين.

خطة البحث:

تكون بحثي من العناصر الآتية:

مقدّمة: وفيها ذكرت إشكالية الموضوع، أهدافه،المنهجية المتبعة في بحث أجزائه مع الإشارة إلى الدراسات السّابقة، ثم الخطّة المتبعة في إعداده.

المبحث التمهيدي: عرجت فيه على بيان مفاتيح الموضوع.

المبحث الأول: وفيه دراسة ركائز الخوارج في تأويلهم النصوص القرآنية.

المبحث الثاني: وفيه دراسة ركائز الحداثيين في دعواهم اللانهائية في تأويل المعاني القرآنية.

المبحث الثالث: وفيه بيان الأوجه المشتركة بين الخوارج والحداثيين تأويلهم كلام رب العالمين.

خاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات المتوصّل إليها.

2.المبحث التمهيدي: بيان مفاتيح الموضوع.

من عادة الباحث أن يقدم بين يدي بحثه بيانًا للمصطلحات ركائز موضوعه؛ فيجعلها كمفاتيح للقرّاء يستفتحون بها أبوابه ويستنيرون بها في غياهب الأفكار المطروحة والمعاني المبذولة.

1.2 المطلب الأول: معنى التأويل.

التأويل لغة: قال ابن فارس: "وآليؤول، أي: رجع. قال يعقوب: يقال: " أوَّلا لحكمَ إلى أهله"،أي: أرْجعه وردّه إليهم...، ومن هذا الباب تأويلا لكلام،وهو عاقبته وما يؤول إليه،وذلك قوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) [الأعراف: 53]، يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم"[2].

وقال ابن منظور: " الأَوْلُ: الرجوع. آلا لشيء يؤول أولا ومآلا: رجع. وأول إليه الشيء: رجعه"[3].



إذن فالمعنى اللغوي لتأويل الكلام دائر بين معنيين إمّا ما يَرجِع إليه الكلام ويُردُّ ببيانه وإمّا ما يلزمه ويؤول إليه من عواقب ونتائج؛ لهذا قال ابن الأعرابي: " التفسير والتأويل والمعنى واحد"[4].

التأويل في الاصطلاح[5]: أما التأويل اصطلاحا فينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1-التأويل يطلق ويراد به التفسير، قال تعالى: (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) [يوسف: 36]، أي بتفسيره.

2-التأويل بمعنى حقيقة الشيء، قال تعالى: (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) [يوسف: 100].

3-التأويل بمعنى صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

والمعنى الأخير هو الذي أعنيه في هذا البحث؛ إذْ درج عليه كثير من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم، وهو المذموم بنص الآية قال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) [آل عمران: 7].

2.2المطلب الثاني: تعريف الخوارج.

الخوارج لغة: من الخروج وهو النفاذ عن الشيء[6].

الخوارج اصطلاحا: عرفهم ابن حجر فقال: " أما الخوارج فهم جمع خارجة أي طائفة وهم قوم مبتدعون سموا بذلك لخروجهم عن الدين وخروجهم على خيار المسلمين..."[7].

وعرفهم الشهر ستاني فقال: " كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أوكان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان"[8].

وقد عُرف الخوارج بأسماء أخر، كالحرورية نسبة إلى أرض حروراء بالعراق حيث منزلهم أوّل أمرهم، كما سُمُّوا بالمحكمة لإنكارهم الحَكَمين وقولهم لا حكم إلا لله، وغيرها من الأسماء[9].

ولعل الاسم الجامع لهم هو الخوارج منبثق من الخروج؛ إذْ هو أساس بدعتهم لقول النبي ﷺ في أصل نَبْتِهم «إنّه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا، لا يجاوز

حناجرهم، يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية»[10]، وباقي الأسماء أوصاف لهم جاءت تبعا لفعل أو قول صدر عنهم.

3.2المطلب الثالث: تعريف الحداثيين.

الحداثيون لغة: من الحدث والحداثة بمعنى نقيض القدمة، وحدث أمر بعد أن لم يكن[11].

فالمعنى اللغوي يدل على أن الحداثيين ما أُطلق عليهم هذا الاسم إلا لفعل حادث فعلوا لم يكن في السلف من قبل.

الحداثيون اصطلاحا[12]: تعددت التعريفات للحداثة إلا أن مجملها ترمي إلى إحداث ثورة تجديدية على كل ما هو قديم بطمس عوالمه والنظر إليه برؤية جديدة مستمرة متحررة من القيود والضوابط.

لذا فالحداثيون من جهة تأويلهم لمعاني القرآن يعتبرون فرقة حديثة تحكِّم العقل في تفسير النصوص القرآنية غير منضبطة بالقواعد التفسيرية، ولا الآثار السلفية.

الخلاصة: من خلال التعريفين للخوارج والحداثيين يتبين أن الفرق بينهما في ثلاث نقاط:

أ- الخوارج فرقة قديمة جذورها ممتدة إلى عهد النبوّة، أما الحداثيون فهم فرقة حديثة.

ب- الخوارج أولوا المعاني القرآنية بما يوافق عقيدتهم حتى جمدوا على ظاهر اللفظ القرآني، والحداثيون توسعوا في تكثير المعاني القرآنية وادعوا استمرارية تجددها.

ج- الخوارج لهم أصول وقواعد اعتمدوها في تأويل القرآن أما الحداثيون يفتقرن إلى ذلك بل اعتمدوا فكر كل قارئ في تأويل المعاني القرآنية.

3.المبحث الأول: دراسة ركائز الخوارج في تأويلهم النصوص القرآنية.

انتهج الخوارج في بيان المعاني القرآنية مذهبين، مذهب تأول النصوص القرآنية بغير ما دلّت عليه وفق القواعد والضوابط التفسيرية، وآخر جمد على ظاهر الألفاظ فلم يتعدّ ما ترمي إليه من معان وفق السياقات والمعهودات القرآنية؛ لذا أدرجت في هذا المبحث



مطلبين أولاهما جعلته في بيان الراجح من أقوال العلماء في حكمهم على منهج الخوارج تجاه النصوص القرآنية وثنيته بأهم الركائز التي اعتمدوها في ذلك.

1.3المطلب الأول: منهج الخوارج تجاه بيان المعاني القرآنية.

اختلف العلماء في تصنيف الخوارج على ثلاثة أقوال:

القول الأول: اعتبار الخوارج مؤولة للنصوص القرآنية تأويلا مذموما؛ لما يحكّمون من عقولهم الضعيفة في آي القرآن الكريم قال شيخ الإسلام: " وأمّا أهل البدع: فهم أهل أهواء وشبهات، يتّبعون أهواءهم في ما يُحبّونه ويُبغضونه، ويحكمون بالظنّ والشبه؛ فهم يتّبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ...بما يتأوّلونه من القرآن، ويُحرّفون فيه الكلم عن مواضعه، ويقولون إنّهم إنّما يتّبعون القرآن كالخوارج"[13].

ولعل مستند شيخ الإسلام في حكمه هذا ما أُثر عنهم من فهمهم السقيم لبعض آي القرآن الكريم، حيث قال عنهم كما في مجموع الفتاوى: " وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه مال ميدل عليه، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب؛ إذ كان المؤمن هو البر التقي. قالوا: فمن لم يكن برًّا تقيًّا فهو كافر وهو مخلّد في النار. ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله"[14].

القول الثاني: اعتبارهم كفرقة ظاهرية جامدة على ظاهر ألفاظ النصوص القرآنية، قال في ضحى الإسلام: " ومن أكبر مظاهر بساطتهم -أي الخوارج- وعدم تفلسفهم أنّ النّاظر فيما روي لنا من جدلهم ومناظراتهم يرى أنهم التزموا حرفية الكتاب والسنة، ولم يتعمقوا في التأويل، فلو أنهم عاشوا في العصر العباسي لكانوا من أهل الظاهر الذين لا يقولون بقياس ويرون إتباع ظواهر النصوص من غير تأويل..."[15].

واستندوا في ذلك بما ثبت عنهم من جمود ظاهري عقيم على بعض النصوص القرآنية، وفي ذلك يقول أحمد أمين: " وقد أدّى تمسك الخوارج بظواهر النصوص إلى سخافات، فكان منهم من يرى أنّ رجلا لو أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار لقوله

تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) [النساء: 10]، ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار؛ لأن الله لم ينص على ذلك"[16].

القول الثالث: ذهب إليه الأشعري في مقالاته، متوسطًا بين القولين السابقين فقال: "فمنهم -أي الخوارج- من يجيز الاجتهاد في الأحكام، ومنهم من لا يرى ذلك بل يجمد على النص فيقول بظاهر القرآن"[17].

فبتحليل الأقوال الثلاث يظهر بأن الخوارج ليسوا بمن يرى التأويل مطلقا ولا الجمود مطلقا، كما أنهم ليسوا بمنقسمين إلى فرقتين في ذلك، بل هم بصفة عامة يتعاملون مع بعض النصوص القرآنية بالتأويل المذموم، كما يتعاملون مع بعضها الآخر بالجمود على حرفية الألفاظ القرآنية، وكل ذلك مردّه تعاملهم مع النصوص بخلفية عقدية ومنهجية فكرية منحرفة جعلوها كضوابط لتفسير القرآن.

ولا يقتصر الأمر على ما ذكره الأشعري من اعتبار بعض الفرق نصيينو بعضهم مؤولين مجتهدين، وإنما يتردد أمر الخوارج بينهما، كما يتضح ذلك جلياً في مواقف الخوارج المختلفة[18].

فهذا التصنيف والحكم على الخوارج بأنهم نصيّون تارة، باعتبار المعنى الأول المتبادر من إطلاق الجمود على النص فلا يتعدّونها إلى معان قد تتسع لها، ومتأولة تارة أخرى باعتبار ما يستجلبونه من معان بعيدة عن مراد الشارع الحكيم، والحقّ أنّ الجمود على النص يعتبر نوع من التأويل، لما فيه من تحريف الكلم عن مواضعه، فقد يكون الظاهر غير مراد وذلك لقرينة سياقية أو خارجية، أو هو مراد مع غيره من المعاني المحتملة، وعلى هذا يحمل كلام شيخ الإسلام في حكمه عليهم بأنهم مؤوّلة.

2.3 المطلب الثاني: أهم الركائز التي اعتمدها الخوارج في تأويل المعاني القرآنية:

اعتمد الخوارج في تأويل المعاني القرآنية على ركائز عدّة جعلوا منها ضوابط لفهم كتاب الله، ولعل أهمّها:

أ-الارتكان إلى الخلفية العقدية: للخوارج عقائد كثيرة خالفوا فيها السلف –رضوان الله عليهم- عليها يبنون أفهامهم ولها يتحاكمون في تأويل نصوص القرآن، حتى جعلوها قاضية

عليه بتحديد معانيه على وفق ما أملته عليهم عقائدهم وما أسفرت عليه أهواءهم، ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف: 87].

قالوا: والفاسق – لفسق هو إصراره عليه – آيسمن روحا لله، فكان كافراً، وهذا ناجم عن عقيدة أكثرهم في تكفير صاحب الكبيرة[19].

ب-تحكيم العقل: لم ينضبط الخوارج في تفسيرهم بالمأثور بل راحوا يحكِّمون عقولهم في النصوص القرآنية من غير قيد؛ فمتى وافق المعنى عقولهم قبلوه ومتى خالفها رفضوه، ومن آثاره أن أورثهم سطحية في الفهم من دون تعمق في المعاني التي دلت عليها ألفاظ القرآن، ومثال ذلك ما أورده المبرد في الكامل، وما دوّنه عليهم الذهبي في التفسير والمفسرون حيث أوردا قصة تنمُّ عن سوء فهمهم للقرآن بتحكيم عقولهم الضعيفة وسطحية أفهام هم السقيمة، فقد رُوي أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتُّهِمَ بامرأة حدَّاد رأوه يدخل منزله بغير إذنه،فأتوا قطرياً فذكروا ذلك له،فقال لهم: إنّ عبيدة من الدين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم،فقالوا: إنَّا لا نقاره على الفاحشة،فقال: انصرفوا. ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال: إنَّا لا نقار على الفاحشة، فقال: به تونبيا أمير المؤمنين فما ترى؟قال: إنّى جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاولت طاول البرئ. فجمع بينهم فتكلموا، فقام عبيدة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: (إِنَّ الذين جَآءُوا بالإفك عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) [النور: 11] وما بعدها من سورة النور – فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا: استغفر لنا.. ففعل[20].

ج-نبذ الآثار: لم يعتمد الخوارج في فهمهم القرآن على المأثور عن النبي العدنان ﷺ في تفسيره بعض آي القرآن، أو ما كان من قبيل أسباب النزول وما تناقله الرواة عن السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان في بيان جمل القرآن، فكل ذلك أهمله الخوارج وذهبوا يتأوّلون معاني القرآن فألصقوا به ما لا يمتُّ له بصلة، مناقضا لما قرره سلف الأمة، ولعل هذا هو الركن الأساس الذي اعتمده الخوارج؛ ذلك لأن ترك الآثار يفتح لهم باب التأويل المذموم، فيُعملون العقل في ليّ ألفاظ وآي القرآن بما يوافق عقائدهم الضالة وأفكارهم المنحرفة، قال حسين الذهبي: " ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية. أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخاً لبعض

آيات الكتاب. أو مخصصاً لبعض عموماته، أو زائداً على بعض أحكامه، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملَّك قلوب الخوارج، وتسلَّط على عقولهم..."[21].

ومثال ذلك ما أورده صاحب مقالات الإسلاميين[22] من زعم حفص بن أبي المقدام أن الله أنزل في شأن ابن ملجم قاتل عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) [البقرة: 207]، وهذا مخالف لما صح من سبب نزول الآية أو تفسيرها النبوي، قال الحاكم: " أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزاهد، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بنزيد، عن أيوب،عن عكرمة،قال: لما خرج صهيب مهاجرا تبعه أهل مكة فنثلكنانته،فأخرج منها أربعين سهما، فقال: «لا تصلون إلي حتى أضعفي كل رجل منكم سهما،ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم». قال: وحدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت،عن أنس - نحوه -، ونزلت على النبيﷺ: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) فلما رآه النبيﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع»قال: وتلا عليه الآية[23].

4.المبحث الثاني: دراسة ركائز الحداثيين في دعواهم اللانهائية في تأويل المعاني القرآنية.

لم يشق الحداثيون عصا أهل الأهواء في تأويلهم معاني القرآن العظيم، بل اعتمدوا منطلقا موحدا، ومبادئ مشتركة لتحريف كلام الله عن موضعه، وتوجيه معانيه حسب ما تشتهي أنفسهم وتستهويه أفئدتهم من غير تحكيم لأقوال من سلف من خير القرون، ولمزيد بيان هذا المرتكز الخطير لابد من بيان هدفهم الرئيس الذي من أجله ارتقوا هذا المنهج العليل، واتبعه ببيان معتمدهم في تحقيق ذلك.

1.4 المطلب الأول: مفهوم اللانهائية في تأويل المعاني القرآنية عند الحداثيين.

اشتهر العرب بحسن منطقهم وبلاغة كلامهم حتى أنهم يستودعون خطاباتهم القصيرة معاني كثيرة، وعلى هذا النسق جاء القرآن الكريم معجزا إياهم بحسن نظمه واتساع معانيه، لكن في حدود ما يحتمله اللفظ من معان وما أراد به منزِّله من مرامي، استوعبها سلف الأمة إما بذكر بعض أنواعها أو بتحديد مجال ما تصبو إليه من معان، لئلا يخرج من بعدهم عن مجال ما دلت عليه، فخالف في ذلك الحداثيون بإطلاقهم العنان للقارئ ليستنبط منها في كل مرة معنى جديدا لم يسبق إليه.

أ-معنى اللانهائية في اللغة: اللانهاية نقيض النهاية، ونهاية كل شيء غايته[24]، أي بمعنى حده الذي يصل إليه، ولهذا فتكون اللانهائية في المعاني بمعنى لا حدّ في اتساعها وكثرتها.

ب-معنى اللانهائية في اصطلاح الحداثيين: لا شك أن المعنى الاصطلاحي مستمد من المعنى اللغوي لهاته الكلمة، وقد عنى بها الحداثيون انفتاح النص القرآني على جميع المعاني، حتى أنه لا يمكن لأيّ تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي[25].

وفي هذا تصريح بأن النص القرآني منفتح على كل ما قد يفهمه القارئ من ألفاظ القرآن من غير قيد وتأطير شرعي لها، وعلى هذا النسق سار الشرفي في تقرير هذا المرتكز فقال: "... وبغضّ النظر عن احتماله -أي القرآن- مثل كل النصوص المكتوبة -والدينية والتأسيسية منها على وجه الخصوص- لعدد يكاد يكون غير محدود من التأويلات حتى في الآيات التي تبدو في الظاهر صريحة"[26].

وبناء على هذا المرتكز الخطير القاضي بانفتاح النص القرآني على كل ما يتبادر إلى الأفهام من معان، تتولد ركائز الحداثيين الفرعية في تحريف دلالة الألفاظ والتراكيب القرآنية.

2.4المطلب الثاني: ركائز الحداثيين الفرعية في تأويل المعاني القرآنية.

إن معتقد الحداثيين بانفتاح القرآن على كل المعاني حتى لا تكاد تنحصر، بل تتجدد بتجدد القراءة في كل مرة، استدعى إحداث ركائز فرعية اعتمدها الحداثيون في تحقيق هدفهم الأساس ألا وهو دعوى اللانهائية في تأويل المعاني القرآنية، ومن تلكم الركائز[27]:

أ- تحكيم العقل: لا شك أن العقل نعمة تفضل بها ربنا على بني البشر دون سائر البهائم، قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [الإسراء: 70] قال السعدي في تفسيرها: " كرمهم بالعلم والعقل..."[28]، ليعقلوا بها المعاني المأثورة وفق قواعد سطرها أهل العلم، لا أن يُحكّموا العقل على المنقول من غير ضابط شرعي؛ ذلك لأن من تمام نعم الله كما ذكر السعدي، إرسال الرسل وإنزال الكتب[29]، فالرسل يبينون للناس ما نُزِّل إليهم فيعقلوا هم بدورهم ما خوطبوا به، لكن الحداثيين خالفوا هذا الأصل فأطلقوا العنان للعقل حتى جعلوه قاضيا على النصوص القرآنية، قال هاشم صالح معلقا على كلام أركون: " فمن الواضح أنّ أحكام

القرآن أو حدوده بحاجة إلى تأويل لكي تتلاءم مع عقلية الحداثة. ولكن التأويل بالمعنى الفلسفي للكلمة لم يدخل بعد إلى الساحة العربية أو الإسلامية، وبالتالي فإذا ما أخذنا أحكام الإرث والزواج والطلاق على حرفيتها، فإنها تصطدم حتما بالعقلية الحديثة، من هنا ضرورة التأويل"[30].

أنظر كيف جعل من العقلية الحديثة أو الحداثية قاضيا على الأحكام والحدود القرآنية، حتى أنه استوجب تأويلها بما يوافق التفكير الحداثي، وكأن هاته الأحكام تتغير بتغير الأزمان وتتجدد بتجدد الأجيال.

ب- ترك ما أثر عن النبي ﷺ من التفسير.

من المتقرر عند العلماء أنّ أعلى مراتب التفسير هو التفسير بالمأثور، وهو تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة رضي الله عنهم، قال شيخ الإسلام: " فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، ...فإن أعيا كذلك فعلي كب السنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له..."[31]؛ ذلك لأن تفسير النبي ﷺ وحي، قال تعالى: (إِنْهُ وَإِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم: 4]، وقد كلفه ربّه جلّ وعلا ببيانه للناس فقال عز من قائل: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل: 44].

لكن رغم وجود هاته الآيات الصريحة المستلزمة تقديم تفسير النبي ﷺ، إلاّ أنّ الحداثيين خالفوا ذلك مخالفة صريحة، وليس لهم مبتغى إلا تقديم أهوائهم في تفسير القرآن بدعوى تغير التاريخ والزمان، قال أركون: " ولكننا لا نستطيع أيضا العودة إلى النموذج النبوي لأننا أصبحنا نرى بوضوح تاريخيته، واندماجه في الأنماط العابرة لإنتاج المعنى داخل التاريخ"[32]، بل راحوا إلى عدم الإلزام بتفسير النبي ﷺ بتسوية تفسيره ﷺ بتفسير غيره من البشر، ليفتحوا بها باب التأويل المذموم المناقض لأقوال الرسول ﷺ من غير قيد يقيده ولا ضابط يضبطه، قال محمد أحمد خلف الله فيما نقله عنه أنور الجندي: " إن تفسير رسول الله ﷺ للقرآن قول بشر، ومعنى قول بشر: أنه غير ملزم، أي يؤخذ منه أو يترك، فلا يعقل أن يكون قول بشر له صفة الإلزام"[33].

وهذا إطلاق صريح لنفي العصمة عن النبي ﷺ بل هو تكذيب لآية النجم السالفة الذكر.

ج- تحقير وازدراء المأثور عن السلف من التفاسير.

تفسير السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، عدّه العلماء من التفسير بالمأثور؛ ذلك كون الصحابة رضي الله عنهم شاهدوا التنزيل وحفظوا ما نطق به الرسول ﷺ ثم بلغوه مَن بعدهم مِن التابعين، فحازوا بذلك الشرف في نقل أحسن موروث، وبما امتازوا به من الفهم العميق والعلم الصحيح قال شيخ الإسلام: " وحينئذ،إذ المنجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل عبد الله بن مسعود..."[34]. ثم توالى العلماء على تطبيق هذا الأساس في تفسير آي القرآن الكريم إلى أن ظهرت هاته النبتة الحديثة فنقضت العهد وادعت تجديد المعاني وفق ما يحتاجه الزمن وما تمليه الضرورة، فهونوا بذلك من تفسير السلف وضيقوا من فهمهم ليجعلوا تفسير الخلف مساويا لتفسيرهم، حتى قال أحدهم: " ولكن ما أردنا إيضاحه أنّ المفسرين الكلاسيكيين إذا نظروا إلى القرآن بوصفه خطابا عربيّا وإذا بحثوا عن أسباب نزول آياته في الزمان والمكان قد قرأوه قراءة تاريخية، ونحن لا نختلف عنهم في هذه الناحية سوى أنّهم قد فسّروه بحدود إمكاناتهم المعرفية وبحسب ما أتاحته لهم أدواتهم المنهجية، ونحن نفعل ذلك أي نفسّره بحسب ما تتيحه لنا إمكاناتنا المعرفية...."[35].

ولم يكتف الحداثيون بهذا الوصف لتفسير السلف للقرآن بل حاولوا استصغاره وإبطاله ليفسح لهم المجال بنفث سمومهم وتحقيق مآربهم في ليّ أعناق الدلالات القرآنية، قال شحرور: " فإذا سألني سائل الآن، ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين! هو: كلا لا يسعني ما وسعهم لأن أرضيتي العلمية تختلف عن أرضيتهم، ومناهج البحث العلمي عندي تختلف عنهم، وأعيش في عصر مختلف تماما عن عصرهم، والتحديات التي أواجهها تختلف عن تحدياتهم"[36].

فهذه أهم الركائز التي اعتمدها الحداثيون في تأويل المعاني القرآنية اللامتناهية وفق ما ادعوه من متطلبات الزمن وسيرورة التاريخ.

5.المبحث الثالث: بيان الأوجه المشتركة بين الخوارج والحداثيين في تأويلهم القرآن.

رغم اختلاف الفرق الإسلامية في مناهجها وعقائدها وتأويلها لكلام الله ﷻ، إلا أنّها اجتمعت ضد فرقة أهل الحديث والأثر في قواعد وضوابط تفسير كلام الله ﷻ، ويزيد ذلك وينقص حسب الخلفيات العقدية والأهواء الفكرية، وفي هذا المبحث سأبين الهدف الأساس المشترك بين الخوارج والحداثيين في مخالفتهم أهل التفسير في تأويل المعاني القرآنية، ثم أقارن بين ركائزهم التي اعتمدوها في تحقيق ذلك.

1.5 المطلب الأول: الهدف الرئيس المشترك بين الخوارج والحداثيين في تأويل المعاني القرآنية.

إن الهدف الأساس الذي يرمي إليه كل فريق هو تطبيق ما اعتقدوه من عقائد وما استهوته أنفسهم من أفكار، ولتحقيق ذلك عملوا على اختراق الجدار المنيع الذي رسمه أهل التفسير ألا وهو عدم الخروج عن أُطر ما روي من آثار عن السلف في التفسير وما خلّفوه من قواعد وضوابط لفهم كتاب الله ﷻ، قال شيخ الإسلام: " وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا...، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسولهﷺ فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا"[37].

لذا وكما أسلفت القول، فإن أهل الأهواء اجتمعوا على مخالفة هذا الأصل الأصيل ليفتح لهم المجال في إرساء عقائدهم الضالة وأفكارهم المنحرفة والاستدلال لها عن طريق ليِّ أعناق آي القرآن بتأويلاتهم المخالفة لتفسير السلف.

2.5 المطلب الثاني: المقارنة بين ركائز الخوارج والحداثيين في تأويل المعاني القرآنية.

لما كان مبتغى كل فريق من تأويل المعاني القرآنية واحدًا وإن اختلفت النتائج نسبيا، فإن الحداثيين شابهوا الخوارج في معتمدهم الذي راموا به الوصول إلى هدفهم ومن أهمّ ركائزهم المشتركة ما يلي:

أ- تحكيم العقل: شابه الحداثيون الخوارج في هذا المرتكز، فأخضعوا الآيات القرآنية لسلطان العقل متأولين معانيا بعيدة؛ وما ذاك إلا لقصور أفهامهم وضعف إدراكهم دلالات المباني المرادة من الشارع الحكيم، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل: 44]. فلو كان القرآن يفهم بالعقل المجرد من غير بيان من النبي ﷺ إمّا بتفسير آية، أو بتطبيق حكم عملي، لاكتفى سبحانه وتعالى بإنزال الكتاب من غير تكليف النبي ﷺ ببيانه، ولما اجتهد الصحابة τ من بعده بتفسيره ونشره، ولا توارثه العلماء، وإنما العقل جُعل وسيلة لفهم ما دلّت عليه النصوص الشرعية وفق قواعد وضوابط سنها العلماء لحفظ ألفاظ القرآن من التحريف ودلالاته من التأويل.

لقد اشترك الحداثيون مع الخوارج في إخضاع النصوص القرآنية إلى عقولهم المجردة وإن اختلفوا في نتاج ذلك، حيث فرّط الخوارج بجمودهم في بعض الآيات على معنى واحد تبادر لهم من اللفظ دون النظر إلى القرائن المحتفة به لتوجيه المعنى، وأفرط الحداثيون في إحداثهم معانيا عقلية للألفاظ القرآنية، من غير تقيّد بالقواعد التفسيرية في ضبط المعاني الصحيحة.

ب- ترك الآثار: اتفق أهل التأويلات المنحرفة على هذا المسلك والمرتكز الخطير؛ إذ الآثار المروية عن النبي ﷺ أو المنقولة عن الصحابة أو التابعين – رضوان الله عليهم- ضابطة للمعاني القرآنية، فلم يبق لأهل التأويل مجالا لتحريف كلام الله ﷻ عن موضعه؛ لذلك تنكّبه الخوارج وغيرهم قديما وتابعهم الحداثيون حديثا لتمرير سفاهاتهم التأويلية وتفسيراتهم الدنيّة عن طريق أفهامهم السطحية الخالية من الضوابط الأثرية، فأتوا بتفسيرات مناقضة لما فسر السلف رضوان الله عليهم.

فهذان العاملان الأساسيان اشتركا فيهما الخوارج والحداثيون ومن لف لفهم في تأويل كلام الله ﷻ وهما كما رأيت سبب كل تأويل مذموم ومنبع كل تفسير مردود؛ ذلك لأن فهم كلام الله ﷻ له قواعد وضوابط، ومن أهمها ما قرره أهل العلم[38]، أنّه لا يجوز إحداث تفسير ثالث إذا ورد عن السلف تفسيران في الآية؛ لما سبقوا به من ميزات وامتازوا به من صفات، جعلتهم أئمة العلوم وقادة الفنون؛ لذلك لا يمكن لأحد كائنا من كان أن يأتي بتفسير يناقض ما قرروه ويخالف ما بينوه، إلا أن يكون تفسيرا من باب التنوع ويحتمله اللفظ، غير مخالف للسياق ولا ترده قرينة داخلية كانت أو خارجية.

6.خاتمة:

لم يترك أهل العلم خلفا عن سلف مدخلا إلى تحريف كلام الله سواء كان بتأويل فاسد أو بفهم سقيم إلا سدّوه بتقرير قواعد وضوابط عليها ينبني التفسير الصحيح وبها يفهم المعنى القويم؛ لذلك كان لابد لمن أراد تقرير معتقده الفاسد أو الانتصار لفكره المنحرف أن يرتقي هذا المرتقى الصعب بنبذ الآثار ليفسح له المجال لتحكيم العقل المجرد ومن ثم يكون القرآن عرضة لكل فهم، وميدانا لكل متأول يدير معانيه كيف شاء وينزّل آياته كيفما رأى، وقد أفرز البحث على نتائج وتوصيات ألخصها فيما يلي:

1.6.النتائج:

أ- لتفسير القرآن قواعد وضوابط قرّرها العلماء حفاظا على كلام الله ﷻ من التحريف ومعانيه من التأويل.

ب- أهل الأهواء المخالفين للسلف لا يمكنهم تأويل كلام الله ﷻ إلا باختراق ما سطر أهل العلم من قواعد وضوابط لتفسير القرآن الكريم.

ج- من أهم مرتكزات الخوارج والحداثيين في توجيه كلام الله ﷻ بما يخدم عقائدهم وأفكارهم، إبعاد الآثار الواردة عن السلف في بيان المعاني القرآنية.

د- اشتراك أهل التأويل المذموم ومنهم الخوارج والحداثيون في تحكيم العقل المجرد في آي القرآن بخلفية عقدية ومنطلقات فكرية بعيدة عن مراد الله ﷻ من كلامه.

التوصيات:

أ- إجراء دراسات معمقة في الفكر الحداثي ومقارنته بمختلف الفرق الضالة القديمة لبيان جذوره وأصل فكرته.

ب- الاعتناء بتفسير السلف وإظهاره لعامة المسلمين حتى لا ينخدعوا بهاته التفسيرات الحداثية التي ترمي إلى إفراغ اللفظ القرآني من محتواه، وصد الناس عن المعاني القرآنية الصحيحة.

ج- إجراء ملتقيات وندوات لبيان هذا الفكر الحداثي والتحذير منه.

هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

7. الهوامش:

1- الباطنية هي أصل فكر الحداثيين، ينظر: سلطان العميري، الاتجاه الباطني في تشكله الجديد، مجلة البيان، الرياض، عدد 296، ربيع الثاني 1432هـ، مارس 2012م، ص 42.

2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: 1399هـ -1979م، (162-159/1).

3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 3، بيروت، 1414 هـ، (32/11).

4- نقله عنه ابن منظور، ينظر: المصدر نفسه، (55/5).

5- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2: 1420هـ-1999م، (12-11/2).وينظر منّاع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط 3: 1421-2000م، ص 223-224. وينظر: دط هعابدينطه، المتشابه في القرآن الكريم مفهومه وأسبابه وحكمته، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة والعربية وآدابها، المملكة العربية السعودية، ج 19، ع 41، جمادي الثاني 1428هـ، ص 131-133.

6- ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (175/2).

7- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة -بيروت، ط: 1379هـ، (283/12).

8- أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، د ط ولا سنة نشر، (114/1).

9- ينظر أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط 1: 1426هـ-2005م، (112/1).

10- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع، دار طوق النجاة، ط 1: 1422هـ، رقم 4351، (163/5).

11- ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (36/2). وينظر: ابن منظور، لسان العرب، (131/2). وينظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، د ط ولا سنة نشر، (205/5).

12- ينظر: محمد التونجي، المعجم المفصل في الآداب، دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت، 1419هـ-1999م، (349/1). وينظر: يحي مصلح علي المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة قطر، 1438هـ/2017م، ص 11-17.

13- ابن تيمية، النبوات، تحقيق عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، ط 1، الرياض،المملكة العربية السعودية، 1420هـ-2000م، (420/1-421). بشيء من التصرف.

14- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د ط، المدينة النبوية،المملكة العربية السعودية، 1416هـ-1995م، (30/13-31).

15- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط ولا سنة نشر، القاهرة –جمهورية مصر العربية، ص 946. بتصرف لطيف.

16- المرجع نفسه، ص 946.

17- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط 1: 1426هـ-2005م، (110/1). بشيء من التصرف.

18- ينظر: غالبن علي عواجي، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، ط 4، جدة، 1422هـ-2001م، (279/1)

19- ينظر: حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، د ط ولا سنة نشر، (226/2).

20- ينظر: المبرد، الكامل في الأدب واللغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط 3، القاهرة، 1417 هـ -1997م، (277/3-278). وينظر: حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (229/2). وينظر: سامي عطا حسن، الخوارج وتأويلاتهم المنحرفة لآيات القرآن الكريم، د ط ولا سنة نشر، ص 65-66.

21- حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (231/2).

22- ينظر: أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق نعيم زرزور، (96/1).

23- الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1411 هـ– 1990م، رقم 5700، (449/3-450). قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

24- ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (395/5).

25- ينظر: محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مركز الإنماء القومي- المركز الثقافي العربي، ط 2، بيروت، 1996م، ص 145.

26- عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، ط: 2، بيروت-لبنان، 2008م، ص 156.



27- ينظر: يحي مصلح علي المسقري، الوحي القرآني في منظور القراءة الحداثية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، رسالة ماجستير، 1438هـ-2017م، ص 168-169.

28- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط 1: 1420هـ -2000 م، ص 289.

29- المرجع نفسه، ص 289.

30- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار ساقي، ط 1، بيروت- لبنان، 1999م، ص 261.

31- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: 1490هـ-1980م، ص 39.

32- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة، ط 2، بيروت –لبنان، 2005م،ص 86.

33- أنور الجندي، إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، د ط ولا سنة نشر، ص 304.

34- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص 40.

35- علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت لبنان، ط 4: 2005، ص 78.

36- محمد شحرور، الكتاب والقرآن، الأهالي، دمشق، سورية، د ط ولا سنة نشر، ص 567.

37- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (13/ 361-362)، وينظر: آل تيمية، المسودة في أصول الفقه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، د ط ولا سنة نشر، ص 329.

38- ينظر آل تيمية، المسودة في أصول الفقه، ص 315 و329، وينظر خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعا ودراسة، دار ابن عفان، د ط ولا سنة نشر، (1/200-203).